مدة كيسي، وهز رخيسي، وقافية تجنيسي، ومقام تلويني وتلبيسي، مودة رئيس هذا الصنف العلي ورئيسي ليت
شعري ما الذي عارض هذه الاصول الاربعة، ورجح مذاهبها المتبعة، الا ان يكون عمل اهل المدينة ينافيها، فهذا
يجب النفس ويكفيها، وان شذ ر لقاء او استدعاء، وعدم طعام اودعا، ولم يقع نكاح ولا استرعا، فلم يتعدد
عذر يقتضيه الكرم، والمنصب المحترم، فالجملة الى التماس الحمد ذات اشتياق، والوقف بين اسوا الناس باق
والغيرة على لسان مثل مرفوضه، والله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة، وان كان لذي القاضي
في ذلك عذر فليقدح، واولى الاعذار بدا انه لم يقصد، والسلام انتهى. ويعني بالمولى السلطان ابا سالم بن السلطان
ابي الحسن المريني وبرئيس هذا الصنف العلامة الخطيب ابا عبد الله بن مرزوق رحم الله الجميع ومن كلام لسان
الدين رحمه الله تعالى رسالة في احوال خدمة الدول ومصايرهم وتنبيههم على النظر في عواقب الرياسة بعيون
بصايرهم يعبر فيها عن ذوق ووجدان، وليس الخبر كالعيان، وخاطب بها الامام الخطيب عين الاعيان سيدي
ابا عبد الله بن مرزوق وكانه اعني لسان الدين اشار بعض فصولها الى نفسه، ونطق بالغيب في نكبته التي
نادتها الى رمسه، وكان ذلك منه عندما اراد التخلي عن خدمة الملوك، والتحلي بزينة اهل التصوف والسلوك
فلم يرد الله ان تكون مهجته ناشئة عن ساحة الظلمة خارجة، واراد سامحه الله وعفا له عمرا واراد تحارجه،
وصورة ما قال رحمه الله تعالى واحسست منه يعني ابن مرزوق في بعض كتبه الواردة الى صاغية الى الدنيا
وحنينا لما بلاه من غرورها وتحليه الطور الذي ارتكبته في هذه الايام بتوفيق الله على ان اخاطبه بهذه الرسالة
وحقها ان يجعلها خدمة الملوك من ينتسب الى نبل ويلم بمعرفة مصحفا يدرسه وشعارا يلتزمه وهي سيدي
الذي يده البيضا لم تذهب بشهرتها المكافاة، ولم تختلف في مدحها الافعال وان تغايرت الصفات، ولا
تزال تعترف بها العظام الرفاة، اطلعك الله من اسرار الكون كما اطلعك من امرها بعضه، وزهدك في
سمايها الفانية وفي ارضه، وحقر الحظ في عين بصيرتك بما حملك على رفضه، اتصل بي الخبر السار من
تركك لشانك واجنا الله اياك ثمرة احسانك، وانجياب ظلام الشك الحالك، عن افق حالك، فكرت
في الفرج من بعد الشدة اعتبرت، لا يسوى ذلك من رضي مخلوق يومر فيأتمر، ويدعوه القضا فيبتدر
انا هو في، وظل ليس له من الامر شيء، ونسأل الله جل وعلا ان يجعلها آخر عهدك بالدنيا وبنيها، واول
معارج نفسك التي تقربها من الحق وتدنيها، وكاني والله احس بثقل هذه الدعوة على سمعك، ومضادتها ولا
حول ولا قوة الا بالله لطبعك، وانا انافرك الى العقل الذي هو قسطاس الله في عالم الانسان، والالة لبث العدل
والاحسان، والملك الذي يبين عنه ترجمان اللسان، فاقول ليت شعري ما الذي غبط سيدي بالدنيا، وان
بلغ من زبرجها الرتبة العليا، وتفرض المثال بحال اقبالها، ووصل حبالها، وخشوع جبالها، وضراعة سبالها،
التوقع المكروه صباحا ومسا، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعم الباسا، ولزوم المنافسة التي تعادي الاكابر
والروسا، الترتب العتب على التقصير في الكتب، وضغينة جار الجنب، وولوع الصديق باحصا الذنب
النسبة وقايع الدولة اليك وانت بري، وتطويقك الموبقات وانت منها عري، الاستهداف للمضار
التي تنتجها غيرة الفروج والاحقاد التي تضبطها دكنة السروج، وسرحة المروج، ونجوم السماء ذات البروج،
التقليدك التقصير فيما ضاقت عنه طاقتك، وصحت اليه فاقتك من حاجة
لا يقتضي قضاها الوجود، ولا يكفيها الركوع للملك والسجود، القطع الزمان بين سلطان يعبد، وسهام
للغيوب تكبد، ومجاجة شر تلبد، وابوحة تخلد وتوبد، الوزير يصانع ويداري، وذي حجة
صحيحة يجادل في مرضات السلطان ويماري، وعورة لا توارى، المباكرة كل عدو حاسد، وعلاق
مستاسد، وسوق للانصاف والشفقة كاسد، وحال فاسد، الوفود تتزاحم بسدتك، مكلفة لك
غير ما في طوقك، فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك، الجلسا ببابك، لا يقطعون زمانك
رجومك واياك، الايقنع اغتيابك، فالتصرفات تمقت، والقواطع توقت، والالسنة تبث
والسعايات تحث، والمساجد يشكي حلقها البث، يعتقدون ان السلطان في يدك بمنزلة الحمار المدبور
واليتيم المحجور، والاسير المامور، ليس له شهوة ولا غضب، ولا امل في الملك ولا ارب، ولا موجدة لاحد
كامنه، وللشر ضامنه، وليس في نفسه عن راي نفرة، ولا بازا ما لا يقبله نزوة ولا طفرة، انما هو جارح
لصيدك، وعان في قيدك، وآلة لتصرف كيدك، وانك علة حيفه، ومسلط سيفه، الشراد
يسملون عيون الناس باسمك، ثم يمزقون بالغيبة مزق جسمك، قد تخللهم الوجود اخبث ما فيه
واختارهم السفيه فالسفيه، اذ الخير يتنزه الله عن الدول ويخفيه، ويقنعه بالقليل فيكفيه، فهم يماحون
بك ويولونك الملامة، ويفحمون عليك القول ويسدون طرق السلامة، وليس لك في انا هذه الا
يعوزك امر ارتفاعه، ولا يفوتك مع اتساعه، وذهاب صداعه، من غدا يتبع وذئب يقع، وفرائس
ينيم، وحليم يقعد ويقيم، وما القايم في فرق تحتها جمر الغضا، وما لمن ورايه سوق القضا، وجاه
يحلق عليه سيف منتضى، واذا بلغت النفس الى الالتذاذ بما لا تملك، واللجاج حول المسقط الذي تهلك
انها فيه تهلك، فكيف تنسب الى نبل، او تسير من السعادة في سبيل، وان وجدت في القعود بمجلس الحكم بعض
الا تحيد فليت شعري اي شيء زادها، او اي معنى افادها، الا مباكرة وجه الحاسد، وذي القلب الفاسد،
ومواجهة العدو المستاسد، او شعرت بعض الايناس، في الركوب بين الناس، ما التذت الا حلم كاذب،
اوجد بها غير الزور بجاذب، انما اكلك من يحدق الى الحلية والبزة، ويستطيل مدة العزة، ويرتاب اذا اخذت
بحزك، وينتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك، ويمنعك من مسايرة انيسك، ويحتال على فراغ كيسك،

ويعز

٢١٥

ويعز الشرك ولو نفيسك، واي راحة لمن لا يباشر قصده، ويمشي اذا شاء وحده، ولو صح في هذه الحال لله
حظ وهبته زهيدا، وعين الرشد عملا حميدا، لساغ الصاب، وخفت الاوصاب، وسهل المصاب، لكن
الوقت اشغل، والفكر اوغل، والزمن قد عمرته الحصص الوهميه، واستنفدت منه الكمية، اما الليل ففكر او
نوم، وعتب يجر الغرائر ولوم، واما اليوم فتدبير، وقبيل ودبير، وامور يعيى بها ثبير، وبلا ما بين
ولغط لا يدخل فيه حكم كبير، وانا بمثل ذلك خبير، والله يا سيدي ومن فلق الحب، واخرج الاب، وذرا من مشى
ومن دب، وسمى نفسه الرب، لو تعلق المال الذي يجره هذا القدح، ويورى سقيطه هذا القدح، باذيال الكواكب
وزاحمت البدر بدوره بالمناكب، لما ورثه عقب، ولا خلص به محتقب، ولا فاز به سافر ولا منتقب، والشاهد
الدول والمشايخ الاول، فاين الرباع المقتناة، واين الديار المبتناة، واين الحوايط المغترسات،
واين الذخاير المختلسات، واين الودايع المؤملة، واين الامانات المحملة، تاذن بتتبيرها، وادنا نار
البار من دنانيرها، فقلما تلقى اعقابهم الا اعراء الظهور، مترمقين لجرايات الشهور، متعللين بالهبا
المنثور، يطردون من الابواب التي حجب عنها آباؤهم، وعرف منها اباؤهم، وشم من مقاصيرها عنبرهم
وكباؤهم، ولم تسامحهم الايام الا في بحوث نخرة، او حلال مغرر، وربما محقه الحرام، وتعذر منه المرام،
هذه اعزك الله حال قبولها مع الترفيه، ومالها المرغوب فيه، وعلى فرض ان يستوفي العمر في العز سوفيه،
واما ضده من عدو يحكم وينتقم، وحوت بغي يبتلع ويلتقم، ومطبق يحجب الهوا، ويطيل في التراب الثواء،
وثعبان قيد يعض الساق، وشوبوب عذاب يمزق الابشار الرقاق، وغيلة يهديها الواقب الغاسق،
ليوحيها العدو الفاسق، فصرفها السوق، وسلعته المعتادة الطروق، مع الافول والشروق، فهل في شيء من هذا
مغتبط لنفس حرة، او ما يساوي جرعة حال مرة، واحسرتا للاحلام ضلت، وللاقدام زلت، ويا لها مصيبة
جلت، ولسيدي ان يقول حكمت باستثقال الموعظة واستجفايها، ومراودة الدنيا بين خلانها واكفايها،
وتناسي عدم وفايها، فاقول الطبيب بالعلل ادرى، والشفيق بسوء الظن مغرى، وكيف لا وانا اقف
على السحات الآت بخط يد سيدي من مطارح الاعتقال، ومثاقف النوب الثقال، وخلوات الاستعداد،
للقاء الخطوب الشداد، ونوشي الاسنة الحداد، وحيث يجمل بمثله ان لا يصرف في غير الخضوع لله بنانا
ولا يثني لمخلوق عنانا، واتعرف انها قد ملأت الجو والدو، وقصدت جاد والبق، تقتضي اكف اولي الشمات
وحفظ المذمات، واعوان النوب الملمات، زيادة في الشقا، وقصدا بريا من الاختبار والانتقا، مشتملة
من التجاوز على الغرب من العنقا، ومن النفاق على اشهر من البلقا، فهذا يوصف بالامامة، وهذا يجعل من اهل
الكرامة، وهذا يكلف الدعا وليس من اهله، وهذا يطلب منه لقاء الصالحين وليسوا من شكله، الى ما احفظ
والله عن البحث عن السموم، وكتب النجوم، والمذموم من العلوم، هلا كان من ينظر في ذلك قد قوطع بتاتا
واعتقد ان الله قد جعل لزمان الخير والشر ميقاتا، وانا لا نملك موتا ولا نشورا ولا حياتا، وان اللوح قد
حصر الاشيا محوا واثباتا، فكيف نرجو لما منع منالا، او نستطيع لما قدر افلاتا، افيدونا ما يرجح العقيدة
المنورة فنتحول اليه، وبينوا لنا الحق نعول عليه، الله الله يا سيدي في النفس المرجحة، والذات المحلات
بالفضايل الموشحة، والسلف الشهير الخير، والعمر المشرف على المرحلة بعد حث السير، ودع الدنيا لبنيها
فما اوكس حظوظهم، واخس لحوظهم، واقل متاعهم، واعجل اسراعهم، واكثر عناهم، واقصر اناهم،

ما ثم الا ما رايت … وربما تعيي السلامة … والناس اما جاير … او حاير يشكو ظلامه
واذا اردت العز لا … ترزا بني الدنيا قلامه … والله ما احتقب الحريص … سوى الذنوب والملامه
هل ثم شك في المعاد … الحق او يوم القيامة … قولوا لنا ما عندكم … اهل الخطابة والامامه

وان رميت باحجاري، واوجرت المر من اشجاري، فوالله ما تلبست اليوم منها بشي قديم ولا حديث،
ولا استاثرت بطيب فضلا عن خبيث، وما انا الا عابر سبيل، وهاجر مرعى وبيل، ومرتقب وعد قدر فيه
الانجاز، وعاكف على حقيقة لا تعرف المجاز، قد فررت من الدنيا كما يفر من الاسد، وحاولت المقاطعة
حتى بين روحي والجسد، وغسل الله قلبي ولله الحمد من الطمع والحسد، فلم ابق عادة الا قطعتها، ولا جنة
للصبر الا ادرعتها، اما اللباس فالصوف، واما الزهد فيما بايدي الخلق فمعروف، واما المال الغبيط فعلى
الصدقة معروف، والله لو علمت ان حالي هذه تتصل، وعراها لا تنفصل، وان ترتيبي هذا يدوم، ولا يحيرني
الوعد المحتوم، والوقت المعلوم، لمت اسفا، وحسبي الله وكفى، ومع هذا يا سيدي فالموعظة تتلقى من
لسان الوجود، والحكمة ضالة المؤمن يطلبها ببذل المجهود، وياخذها من غير اعتبار بمحلها المذموم ولا المحمود،
ولقد اعملت نظري فيما يكافئ عني بعض يدك، او ينتهي في الفضل الى امدك، فلم ار لك الدنيا كفاء لو
كنت صاحب دنيا، والفيت بذل النفس قليلا لك من غير شرط ولا ثنيا، فلما الهمني الله لمخاطبتك بهذه
النصيحة المزعجة في قالب الجفا، لمن لا يثبت عين الصفا، ولا يشيم بارقة الوفا، ولا يعرف قاذورة
الدنيا معرفة مثلي من المتدنسين بها المنهمكين، وينظر عوارها القادح بعين اليقين، ويعلم انها المومسة التي
حبها زور، وعاشقها مغرور، وسرورها شرور، تبين لي اني قد كافيت صنيعتك المتقدمة، وخرجت
عن عهدتك الملتزمة، وابحت لك النصح الذي يعز بعز الله ذاتك، ويطيب حياتك، ويحيي
مواتك، ويريح جوارحك من الوصب، وقلبك من النصب، ويحقر الدنيا واهلها في عينك اذا اعتبرت،
ولا يشغلك عظايمها لديك اذا اختبرت، كل من تقع عينك عليه حقير قليل، وفقير ذليل، لا يفضلك بشي
الا بانتقاء رشدا وترك غي، اثوابه البهية يجردها الغاسل، وعروة عزه يفصلها الفاصل، وماله

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)